«إذ إن كان أحدٌ في المسيح فهو خليقة جديدة. الأشياء العتيقة قد مضت. هوذا الكل قد صار جديدًا. ولكن الكل من الله الذي صالَحَنا لنفسه بيسوع المسيح وأعطانا خدمة المصالَحة».

(2قورنثوس 5: 18)

«إن ولوج المعاني الجديدة في حياة الشخص هي الطريقة الوحيدة التي يقدر بها أن يوسِّع آفاقه -على مستوى الشعور- كي يتحقّق النضوج الروحي في العالم الدنيوي».

(جوزف آلن، خدمة الكنيسة، الترجمة للمؤلف)

«إن الكنيسة ليست ببساطة حاضرة في العالم تنتظر نهايته. إن الحقيقة الوحيدة في وجودها في العالم هي قيامته».

(الأب ألكسندر شميمن، الترجمة للمؤلف)

«نحن تاريخ الرب وقادرون بالحكمة والحب على أن نجترح أعجوبة الإنقاذ، ذلك الذي لا يمنّ علينا به أحد فداء، فإن فداء الرب لأرضنا ينقله أهل الأرض إن هم استطاعوا أن ينسوا كثيرًا ويغفروا كثيرًا».

(المطران جورج خضر)

أنصنع تاريخًا أم أنّ التاريخ يصنعنا؟

أين نحن في هذا الزمان والمكان؟ إلى أين نؤول؟ مِن أين كان مصدرنا وإلى أين امتدادنا وتوجّهنا؟ هل ننتهي مع وقوف دقّات القلب أم أننا ممتدّون في جذور الأرض واهبون إياها قوة متدفّقة من الحياة لا تتوقّف ولا تنتهي؟

إننا في الحقيقة نحيا في الزمان والمكان ونعيش في خيراته. إننا حقًا نحيا في التاريخ، ولكننا هل وضعنا بصمتنا عليه؟ هل دمغناه بحبنا وفرحنا وحزننا؟ هل استشهدنا وكافحنا من أجل أن نصنعه أو من أجل أن نغيّره؟ هل كنا شهداء التوبة والدموع الحارّة وبذل الذات؟ هل كان عملنا عمل فرح وسرور وبهجة لنا وللآخرين؟ أو بسؤال جريء: هل غيّرنا التاريخ، حضّرناه وارتقينا به كي يكون تاريخًا للمجد الآتي؟ أم إننا نسير مع الرُكب ثابتين في حدود التاريخ ودقّاته المُبَرمَجة: نأكل، نعمل، نبني، نصنع كنوزًا، نخلق أفكارًا، نصبح من المشاهير ونكتب أسماءنا في سجلاّته، فيدمغنا التاريخ بشهادة سلوك حسنة راضيًا عن اجتهادنا البشري الأرضي فكنا من وجهة نظره مواطنين صالحين في المُلك الأرضي واهبين «ما لقيصر لقيصر وما لله لله». هكذا، يكون التاريخ هو الذي يصنعنا، يقولبنا، يأخذنا إلى فلسفته الحياتية ويدمجنا في المجد الأرضي؛ ونحن بهذا ننتهي ونَزول قبل أن نؤول إلى غايتنا.

شئنا أم أبينا، لنا وللتاريخ مصدر واحد. إن مصدرنا هو الله. من نفس «الكلمة» قد وُجدنا؛ أصبحنا في الوجود. لُحمتنا واحدة ويشهد الواحد للآخر، يتكلّم عن الآخر ويحسّ بوجوده لأنه يجب أن يكون لسان حاله. أما أننا اليوم في ثنائية فلأن الإنسان نسي مصدره الحقّ ولَحِق يوم ولادته الزمنية وهكذا أصبح هو والتاريخ صنوان لا يلتقيان. الثاني يجرف الأوّل مع تيّاراته الوثنية والأول خانع وخاضع لهذه المشيئة. وكما نسيَ الإنسان مصدره، كذلك نسيَ مآله والغاية من وجوده ودوره في هذا الوجود. بهذا الابتعاد عن الله اختلّ التوازن والتناسق بين الإنسان والتاريخ. فالتاريخ لم يعد تاريخ الله –تاريخ الخلاص- في الوجود الحسّي بل أصبح تاريخ أحداث للبشر، تاريخًا محدودًا في طيّات الزمان والمكان.

إن تاريخ الخلاص هو الذي يجمع ما لقيصر وما لله لأن كل شيء هو من الله وإلى الله، «التي لك مما لك نقدّمها لك عن كلّ شيء ومن أجل كلّ شيء». إنّ ما لقيصر هو أيضًا لله؛ وإعطاؤه لقيصر هو واجب،

فإنه أولاً وأخيرًا سيؤول إلى الله؛ إنه من الله، وقيصر هو من الله أيضًا، وهكذا كل شيء سينتهي إلى الله. ليس هناك انفصام في العلاقة بل انسجام ووئام. ليس هناك رب أبدي غير الله، والكلّ إلى زوال حتى ولو كان قيصر. إن الله هو الذي خلَقَ وأوجَدَ، أما قيصر فهو خليقة كالخلائق. إن وجوده له هدف الخليقة: أن يُسبَّح الله وأن يكون على صورته ومثاله، «فإن كلّ عطيّة صالحة هي من لدنك يا رب الأنوار»، وكل شيء من الله هو صالح، وإن كان سوف يُعطى لقيصر. حتى قيصر هو صالح وحسن لأنه أتى من عند الله، إنه قد وُلِدَ من العدم «ملكًا وكاهنًا» على صورة الله ومثاله كي يكون بارًا وقديسًا. الانفصام بين الله وقيصر غير مقبول؛ إنما يحصل من سلوك الطريق التي يسلكها قيصر إذا كانت غير الذي مهّدها الله للخليقة؛ إن الإنفصام هو صنع البشر وهو غير ما قصده الله.

إن التاريخ هو تاريخ قصّة الخلاص الذي يؤمّ أحداثه الإنسان باسم الله. ليس هو تاريخ فرد أو جماعة. إنه تاريخ الله؛ تاريخ تجليّاته ووعده. إن التاريخ لم يصنعنا، ولسنا نحن الذين قد صنَعناه أيضًا، إنما نحن وإياه توأمان قد صرنا بكلمة الله. هذه الصيرورة أعطت التاريخ زخمه وبُعده الأبدي، فبات يتبدّل ويتحوّل من مجرد سردٍ لأحداث فردية ووقتية إلى ملحمة من الحب والوله للخالق والخليقة. يصبح التاريخ ملحمة عشق شعرية وشاعرية لأنه بدأ ينبض بالشعور والإحساس. لم يعُدْ هناك من مكانٍ للخطأ، للخطيئة، لأنه أصبح مملوءًا بالحسّ والشعور ومنسوجًا بهما. الحب ينقّي كل نفس ويرتقي بها إلى ما فوق طبيعتها؛ إلى جوهرها. تصير العلاقة علاقة حب وانصهار من دون امتزاج، علاقة النار اللاّهجة والمتوهِّجة. إن هذه العلاقة تغيِّر التاريخ، تولده من جديد في كلّ ثانية منه وفي كلّ وقت وفي كلّ ساعة، وتصبح طلباتنا والعمل بوصاياه بدءًا جديدًا على الدوام فتتقدّس ذواتنا وكذلك يتقدّس هو.

في البدء، نتيجة كلّ صنع، نتيجة كلّ عمل كانت جديدةً وكانت حسنةً. أن نعود إلى البدء، هذا مستحيل. ولكن يُمكننا أن نولد من جديد، ونمشي تاريخ الخلاص بتوبة وإيمان. فإنه منذ البدء، نحن والتاريخ من الله، وإلى الأبد، نحن والتاريخ واصلون إلى الله السرمدي الأبدي, وفي سياق السير وتقدمّه نتنوّر، نتقدّم ونتجدّد بالله مغيّرين ومجدّدين الزمان والمكان، فتُصبح كلّ لحظة لحظة جديدة منضويًا تحت لوائها حدثٌ للخلاص. إن هذا التجديد أو الولادة الجديدة، هي ولادة روحية كاملة شاملة. إنها اليقظة أو الصحوة. إنها الارتداد إلى البدء. إنها الإياب، أي العودة إلى درب الرّب. فهي التوبة عن عدم الحسّ والشعور. هي المواكبة والتواصل مع العلويات وامتداد الله إلينا. هي الجواب بقبولنا لمشيئته.

ليس الهدف هو مَن يصنع الآخر؟ إنما هو فهم أهدافنا وغايتنا وحتى الغاية من وجودنا. من دون البشر ليس هناك تاريخ. نعم، من الممكن أن يكون هناك زمان ومكان ولكن هذا مائت وسلبي ومن دون حراك. ليست المحبّة في شراييه لتعطيه نبضات الحياة. فمن غير الممكن أن يكون هناك خليقة من دون خالق وهدف وغاية.

إنها قدسيتّنا وبالتالي قدسيّة التاريخ التي أنعم بها الله علينا في العديد من المطلاّت، المحطّات والتجلياّت، إن لم تكن في كلّ مراحل الحياة الأرضيّة. هذه القدسيّة هي من العلاء طريق صعود لنا؛ إنها طريق قدسيّ من «المُقدِّس إلى المقدَّسين». لذلك نشدو أن نكون طريقًا خلاصيًّا، حافرين بأظافرنا، بتضحياتنا، ببِرّنا، بدمنا، بحبّنا، بشكرنا، بسرورنا، ببهجتنا وبدموعنا أحداث الخلاص وتاريخ الخلاص كما شاء الله.

إننا دائمًا في مخاض الولادة الجديدة؛ فبالقدسيّة وحدها الاكتفاء.